كتاب الوعى القـــومى

تأليف الدكتور قسطنطين زريق

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

البلاد العربية الآن فى سبيلها إلى التنبه والوعى الذى يسبق النهضات ويدلها على المهيع الواضح ، ويأخذ بيدها إلى الطريق الواجب أن يسلك . فإن المسالك متشعبة دائماً فى إبان هذه الأوقات ، ولا بد من أدلاء ماهرين من رجال الفكر الناضج والثقافة الصحيحة يقفون بجانب رجال السياسة والحكم فى البلاد العربية الصاحية من سباتها الطويل ليوجهوا البلاد وجهة صحيحة خشية أن تطغى عليها تيارات مختلفة فتصرفها عن سواء القصد واعتدال الجادة

هؤلاء الأحرار « الوعاة » من رجال الفكر هم الذين نحتاج إليهم اليوم فيما نحن بسبيله من يقظة قومية . وإذا كان عددهم قليلاً لا يتناسب مع خطورة القضية التى تواجهها البلاد العربية ، فقد ظهرت من قلائلهم « آثار واعية » تبشر بأن الوطن العربى بدأت فيه طلائع التفكير المنظم والدرس المتسق ، وتبشر كذلك بأن ضآلة العدد ليست بمانعة من جودة النوع . وتبشر كذلك بأن البلاد العربية ظهر فيها قوم لا يؤمنون بقيمة الأمشاج المختلطة من الأدب والشعر إيمانهم بالقيم العالية للعلم الصحيح الذى يعبر عنه الغربيون بكلمة Science لا العلم الذى كان يجعل من الفقيه عالماً ومن النحوى عالماً ومن العروضى عالماً

ولقد ظهر فى المكتبة العربية ثلاثة كتب قيمة تتصل بموضوع الثقافة والتربية القومية وما إليها : الأول كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » للدكتور طه حسين . والثانى كتاب « آراء وأحاديث فى التربية والتعليم » للأستاذ ساطع الحصرى مستشار المعارف فى الجارة العربية الشقيقة سورية ، والثالث كتاب « الوعى القومى » للدكتور قسطنطين زريق أستاذ التاريخ بالجامعة الأمريكية ببيروت

أما الكتاب الأول فوضعى يختص بموضوع الثقافة فى مصر ، وقد لقى فى حينه ما يستحقه من النقد ومكّن الله لمؤلفه من الأمر ما يعينه على تحقيق براجمه الطويلة

أما الكتاب الثانى فيتناول مسائل فى التربية والتعليم والقومية ، وكان من حظى أن أقدمه لقراء « الرسالة » من عهد قريب . أما الكتاب الثالث ـ الوعى القومى ـ فكان من حظه أن يقدمه إلى قراء الرسالة تقديماً موجزاً بليغاً أستاذنا وصديقنا توحيد بك السلحدار الذى كان له الفضل فى إذاعة بعض نسخ منه بين أصدقائه الذين يحبهم ويحبونه ويجب أن يناقشهم كثيراً فى مسائل تتعلق باليقظة القومية والنهضة الحقيقية لبلادنا

وليست « الرسالة » بباخلة على مثل هذا الكتاب أن يطول الكلام فيه ، فإننا نعرف من أهداف صاحبها النبيلة ؛ واضطلاعه بحمل رسالة الفكر الصحيح فى الوطن العربى ما يطمعنا فى إطالة الكلام ، فإن قيمة مثل هذا الكتاب « التوجيهى » لا تعرف ما دام مطموراً فى رفوف المكاتب ، أو منحّى فى زوايا الخزائن ؛ وإنما تظهر قيمته ويعرف قدره متى ما نبّه إليه منبّه أو ذكّر به مُذكر . والذكرى تنفع المؤمنين

* * *

يشترط الدكتور زريق لاستكمال النهضة القومية العربية ثلاث خطى رئيسية : الأولى : بناء الأساس الفكرى الذى تقوم عليه النهضة بدراسة الغايات والوسائل دراسة بعيدة عن الارتجال

والثانية : تحويل هذه الدراسة المنظمة إلى عقيدة قومية تتجه بالأفراد إلى الأهداف الصحيحة

والثالثة : تنظيم ، الأمة العربية وضبط نوازعها وإخضاع إرادتها لإرادة وحيدة منبعثة من عقيدة واحدة ، وتعنى هذه الخطوة العمل المنظم الصادر عن فكر منظم يدرّب عليه الرجال والنساء على السواء

والدكتور زريق حين يدعونا إلى البحث فى غايات نهضتنا لا يحرم علينا دراسة نهضات الأمم الأخرى ودرس غاياتها ؛ فإن مثل هذه الدراسات تكون كالقبس على شرط أن نكيفها لحياتنا الخاصة

والعربي الواعي قومياً هو الذي يعرف من أي المنابع يفيض هذا الوعي ، وإلى أي الأهداف يتجه . أما التشدق بألفاظ اللغة والجنس وجلال التاريخ القديم من غير فهم حقيق لمعانيها فذلك نوع من الشعور الذي لم يرتفع إلى قمة الفكر ؛ ولم يكتسب مع الفكر نعمة الحياة

والعربي الواعي يحس إحساس فهم وإدراك بعوامل الضعف في الشخصية العربية الحاضرة ويواجه مشكلاتها مواجهة واقعية صريحة لا عوج فيها ولا التواء

ولما كان الغرب بوصفه الحاضر عاملاً فعالاً مع شخصيتنا العربية الحاضرة ، ولا مناص لنا من تفاعل هذين العاملين ، فقد وجب علينا أن نفهم الغرب حق فهمه وندرك كنهه حتى نحسن مواجهته ونأخذ له أهبته ويكون اتصالنا به على ضوء وبصر وعلم لا عن صُدف طارئة . ومن الخطر أن تأخذ البلاد العربية روعة وتعروها هزة بمظاهر الغرب الخلابة حتى ولو كان ذلك في سرعة السيارات وعجيب صنع الأدوات ... فإن وراء ذلك نظاماً اقتصادياً لا شك سيبقى في جوهره النظام السائد في المستقبل . والدكتور زريق يدعونا إلى إدراك هذا النظام الذي يمتاز بالتنظيم الدقيق الذي يؤلف بين أجزائه ، وأخذنا من محاسنه وتجنبنا عيوبه التي كانت تحت اختبار الغربيين

والحق أن الدكتور رزيق متأثر بهذا « التنظيم » حتى في طريقة تأليفه ... فكتابه - كما يقول أحد المعجبين به - لا يعدو أن يكون مسائل متفرقة يعرفها الرجل الواعي منا ، وتخطر على باله حين يمشي مجتمعاً أو يركب سيارة أو يقرأ كتاباً أو يشاهد أحوالاً ... ولكن الدكتور زريق جمع هذه المسائل « ونظمها » تنظيماً جعل منها وحدة متماسكة الأطراف ، وأخرج منها كتاباً لا تحس فيه تفككاً أو تسيداً لفكرة أو اجتلاباً لمعنى ولكنك تراه مترابطاً محكماً متسلسلاً

وليس مثل هذا التنظيم في الدرس سهل المأتاة على كل من حاوله . فكثيرون منا تضطرب الأفكار في خواطرهم وتزدحم على نفوسهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يؤلفوا بينها ويصنفوها في كتاب يفضي كل سطر منه إلى تاليه ، ويؤدي كل فصل منه إلى تابعه ، كما في كتاب « الوعي القومي »

ولم يجعل المؤلف مهمة الإيقاظ للوعي القومي حبساً على رجال السياسة وأصحاب الحكم . بل كل فرد من أفراد الأمة يستطيع أن يساهم في الإيقاظ مهما كان عمله ، ومهما كان مركزه ، وذلك جميل من المؤلف ، فإذا كان الأفراد جميعاً يحملون ألم سوء الأحوال ، ويشتركون في احتمال المصائر مهما كانت نتائجها فلم لا ينالون شرف المشاركة في التنبيه على مايعود عليهم بأحسن الفوائد وأجزل العوائد ؟

فاشتراك أفراد الأمة في الإيقاظ جائز بل واجب على شرط أن تنعدم الأثرة كما يردد الأستاذ ساطع الحصري ، وينعدم التمرد والعصيان على رأي البروفسور كامباني اك

وللدكتور زريق على أستاذيته الجليلة في جامعة بيروت هو معلم من الطراز الأول ؛ فهو لا يحاول في كتابه أن يكون مبدع ألفاظ أو منشئ عبارات أو مخاطب عواطف ... ولكنه رجل اختمرت عنده فكرة نبيلة فقام يدعو إليها في عبارة تتفق مع جلال فكرته . فلا ترى عنده مبالغة أو سرفاً في القول أو حشداً للألفاظ ، ولكنه مع ذلك قد عرض الفكرة عرضاً بليغاً ، لا يتزيد في لفظة ولا يهوّل في عبارة ولكنه يلقي الكلام على ضوء من صدق الأحكام . وبعد النظر واتساع الثقافة وإدراك لحقائق التاريخ مع وزن لقيم الألفاظ التي يستعملها وقدر حقيقي لها

إلا أن أغلاطاً قليلة وقعت في الكتاب نرجو من الكاتب الفاضل أن يتدارك أمثالها في المرجو المنتظر من تأليفه . ومن هذه الأخطاء : ص ١١ « يبقى الأستاذ شيبوب وأمثاله محقون » والصواب محقين ، والواو التي بعد النفي والاستثناء في قوله «وما من أحد يلمس الحياة العربية الحاضرة ألا ويشعر» لا لزوم لها والفصيح تركها ؛ وقد كرر هذا الخطأ في ص ٤٨ و ص ٧٩ ، والفعل عاقه يتعدى بغير همزة فلا يقال أعاقه ويعيقه ص ٤٩

والآية التي أوردها المؤلف في آخر مقدمة الطبعة الثانية ص ١٦ محرفة وصحتها : « فإن الذكرى تنفع المؤمنين » والمؤلف لم يشر إلى أنها آية ، إلا أن وضعها على تلك الصورة قاطع على أنها اقتباس من القرآن الكريم

وعلى الأستاذ سلام الله ورحمته .

محمد عبد الغني حسن